

الإعلام الغربي وصناعة الإسلاموفوبيا بعد هجمات 11 سبتمبر 2001

The Western media and the industry of Islamophobia after
the September 11, 2001 attacksبن أزواو عمر¹،¹ جامعة محمد البشير الإبراهيمي- برج بوعريريج (الجزائر)، benazouaou80@hotmail.com

تاريخ النشر: مارس/ 2021

تاريخ القبول: 15/01/2021

تاريخ الإرسال: 17/07/2019

الملخص:

ما هو ملاحظ في أعقاب هجمات 2001/09/11 على الولايات المتحدة الأمريكية زيادة حملة العداة لكل إنسان ذي خلفية إسلامية، أو له علاقة بعيدة بالإسلام والمسلمين، وقد خدم هذا الأمر مختلف أجهزة الإعلام الغربية بكل أشكالها بداية من الامبراطوريات الإعلامية الكبرى CNN.CBS .FOX (news...) وصولاً إلى شبكة الأنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، وزاد هذا في الواقع من نسبة الخوف من الإسلام وأنتج ما أصبح يطلق عليه اليوم بالإسلاموفوبيا حتى أصبح الوعي الغربي اليوم وفق آخر استطلاعات الرأي يربط بشكل مباشر بين الإسلام والمسلمين من جهة والعنف والإرهاب من جهة أخرى، ولا يملك الآن إلا صورة نمطية سوداء عن عنهما، وهذا بطبيعة الحال من منطلق الرؤية الإعلامية المغلوطة التي تشوه الحقيقة ولا تقدمها كما هي. من هنا نتساءل عن حقيقة الدور الذي يلعبه الإعلام الغربي في صناعة الإسلاموفوبيا، ويعمل في الوقت نفسه على تعميق العداة لكل من ينتمي إلى الإسلام.

الكلمات المفتاحية: الإسلام، الإعلام، الإرهاب، الإسلاموفوبيا، الغرب، هجمات 11 سبتمبر 2001.

Abstract:

What is observed in the wake of the attacks of 11/09/2001 on the United States of America is to increase the campaign of hostility to every person with an Islamic background or even remotely connected to Islam and Muslims, has helped such a matter of various Western media in all forms, beginning of the media empires (CNN.CBS .FOX news...) to the Internet and social networking sites .This has actually increased the proportion of fear of Islam, which in turn produced what has become today called Islamophobia, so that the Western consciousness (the mental image) today according to the latest polls directly connects between Islam and Muslims on the one hand, violence and terrorism on the other, A stereotypical black image of the latter two, and this of course from the perspective of media misrepresentation that distort the truth and does not progress as it is. From here we wonder

about the role played by the Western media in the industry of Islamophobia, and at the same time deepen the hostility of everyone who belongs to Islam.

Key words: Islam, Media, Terrorism, Islamophobia, The west, September 11, 2001 attacks

مقدمة:

تعد ظاهرة الخوف من الإسلام والتي اصطلح عليها في الغرب بـ (الإسلاموفوبيا) من الظواهر الحاضرة ويقوة في الواقع الغربي المعاصر. خاصة بعد هجمات 2001/09/11 بالولايات المتحدة الأمريكية وما تبعها من هجمات أخرى بأوروبا: باريس، مدريد، لندن. فقد أضحت مادة يتم استثمارها على أكثر من صعيد ومستوى، وهذا تنفيذًا لمخططات وأجندات منها ما هو معلن ومنها ما هو خفي، وقد يكون لسرعة انتشار الإسلام ذاته وزحفه على الغرب، وكذا الخوف من تأثيره هما أكثر الأسباب في ذلك، نظرًا للاختلاف العقائدي والفكري والقيمي ما بين الإثنين، أي ما بين الإسلام والغرب. هذا الغرب-في معظمه- أصبح لا يتردد في الربط بين الإسلام من جهة والعنف والإرهاب من جهة أخرى ويذهب إلى حد إعلان ضرورة مواجهة هذا الخطر-الأخضر- الذي أصبح يهدده ويشكل تحديًا لقيمه الحداثية، وهو الأمر الذي أصبح يدفعه إلى ضرورة الوقوف في وجهه، عن طريق تفعيل واستخدام مختلف الآليات التي يمكن أن تفيد في ذلك ولعل الإعلام بكل أشكاله وصوره هو أبرز وأهم تلك الآليات، خاصة مع الانفتاح الكوني والعالمية الإلكترونية والتقنية التي أصبحت هي الممرر الحقيقي والسريع والمباشر لكل الأفكار والتصورات التي تصنعها الجهات المؤثرة في ذلك، هذا الأخير أصبح سلطة معرفية تشكل الصور الذهنية بل والنمطية التي يمكن إلحاقها بالمسائل والموضوعات المطروحة بحدة واستمرار في فضاءاته. وفي ارتباط بمسألة الخوف من الإسلام يُجمع الكثير من الباحثين والدارسين أن الإعلام الغربي أصبح منذ فترة ليست بالقصيرة هو المصدر الرئيسي لهذه الظاهرة وتناسلها في المجتمعات الغربية حتى ارتقى لأن يكون هو نفسه رأس الحرية في مواجهة الإسلام، من خلال التسويق لعنصر الكراهية والخوف منه، وكذا ممارسة خط تراكمي (linéaire) في التشويش على حقيقته من خلال تقديم رؤية أحادية الجانب عنه.

1- إشكالية البحث:

في هذا المقال وتبعًا لما تقدم، وفي مسعى إبيستيمولوجي لتسليط الضوء على حقيقة الإعلام الغربي وصناعة الكراهية والخوف من الإسلام-أي الإسلاموفوبيا-جاءت الإشكالية المعرفية التي نسعى لحلها على النحو الآتي: كيف أصبح الإعلام الغربي وخاصة بعد هجمات 2001/11/09 يساهم في صناعة الإسلاموفوبيا؟

وفي ضوء ذلك تمركزت تحت هذه الإشكالية المحورية التساؤلات البحثية الآتية:

- ما هي الدلالة الحقيقية للإسلاموفوبيا؟
- هل ثمة أسباب محددة تدفع ذلك الإعلام لإنتاج ظاهرة الإسلاموفوبيا وتعميقها؟

- وما هي التحديات التي تواجه كل أطراف هذه الظاهرة في عملية تجاوزها وإعادة بلورة الصورة الحقيقية عن الإسلام ضمن النطاق الإعلامي؟

2.1- فرضيات البحث:

- يساهم الإعلام الغربي من خلال خطه الافتتاحي وبرامجه والشخصيات التي يستضيفها في إنتاج الإسلاموفوبيا.

- هناك العديد من الأسباب التي تدفع باتجاه إنتاج الخوف من الإسلام وتأجيج مشاعر الكراهية للمسلمين.

- يتحمل الغرب إعلاميا وغير إعلامي مسؤولية حل مشكلة الإسلاموفوبيا، دون نسيان دور المسلمين في المساعدة على ذلك.

3.1- أهداف البحث:

- تتبع سير مصطلح الإسلاموفوبيا من منظور إبستمولوجي-تاريخي بغية الوقوف على درجة تطور مفهومه الدلالي.

- الكشف عن الموقف السلبي الذي يتبناه الإعلام الغربي وخاصة بعد 2001/11/09 من الإسلام والمسلمين، وكذا إبراز مظاهر وتجليات ذلك.

- تحديد أكثر الأسباب الفاعلة التي تقف خلف إنتاج خطاب الكراهية ضد المسلمين في الإعلام الغربي.

- محاولة تحديد الطرق التي يمكن بموجبها تصحيح تلك النظرة السلبية للإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي خاصة والغرب عامة.

4.1- أهمية البحث:

تأخذ هذه الدراسة قيمتها المعرفية والبحثية من واقع الإعلام الغربي والإسلاموفوبيا على حد سواء، إذ أن هذه الأخيرة أصبحت تتزايد بشكل واسع وتنتشر بشكل متدرج، والإعلام الغربي على اختلاف أشكاله يتحمل مسؤولية مباشرة في ذلك فهو ينتج الكراهية ضد المسلمين وينشر الخوف من الإسلام، لذلك كان واضحا ومهما أن يتم تسليط الضوء على هذه الظاهرة ومحاولة الإحاطة بها من أجل تجاوز حدود هذا العداء غير المبرر والذهاب إلى علاقة قوية وموضوعية بين هذا الإعلام وعالم الإسلام من شأنها أن تنتج صورة صحيحة وصادقة.

5.1- منهجية البحث:

لقد تم الاعتماد في بحثنا هذا على منهجية نعتقد أنها كانت موضوعية في حل إشكاليته وكذا الإجابة على تساؤلاته الفرعية، وقد تمثلت في المنهجية التاريخية والتحليلية والنقدية في أحيان أخرى. إذ تتبعنا السياق التاريخي والمعرفي لولادة ظاهرة الخوف من الإسلام، وحاولنا تحليلها وتفكيكها بشكل واف في علاقتها بالإعلام الغربي وخاصة في العقدين الأخيرين، ثم أخيرا مواجهة هذه الظاهرة داخل الإعلام الغربي والغرب وحتى المسلمين في حد ذاتهم بأفكار نقدية.

2- مفهوم الإسلاموفوبيا:

الإسلاموفوبيا (Islamophobia) مصطلح يعكس موقفا نوعيا من الإسلام والمسلمين، وهو من ناحية التأسيس وبداية التداول ليس بالقديم، إذ ظهر قبل نحو ربع قرن من الآن وبالتحديد إلى سنة 1997 من طرف الكاتب البريطاني رونيميد تروست (Runnymede Trust) في تقريره Islamophobia : A challenge For Us All) حيث وظّف المصطلح واستعمله ليعني به الخوف غير المبرر والمحدد من الدين الإسلامي، ما يعني توليد الخوف والكرهية من الإسلام والمسلمين أي التعبير عن حالة شعورية - نفسية وموقف إيديولوجي اتجاه هذين الأخيرين حتى يرتقي الأمر لأن يصبح في مستوى المرض النفسي الذي يعكس حالة الإحباط واليأس من الشيء المتخوف منه، هذا بالذات ما تعكسه لنا جليا الترجمة الحرفية للمصطلح واشتقاقه اللغوي بـ: رهاب الإسلام أو الخوف من الإسلام، الفوبيا (Phobia) في السياقات والطروحات النفسية تعني الخوف المرضي والرغبة، إنها تدل تحديدا على القلق العصابي أو العصاب النفسي الذي لا يخضع للعقل ويساور المرء بصورة جامحة من حيث كونه رهبة في النفس شاذة عن المؤلف يصعب التحكم فيها فضلا عن دلالة الخوف اللاشعوري من الأشياء أو الأشخاص أو المواقف التي ليس لها في الشعور ما يبررها و يفسرها¹، وإذا ما أسقط هذا الأمر على الإسلام كعقيدة وأفكار ونظام حياة فإنه يعكس موقفا معينا أيًا كان شكله فرديا أو جماعيا يفر من هذا الأخير، ويبدأ في تشكيل موقف سلبي عنه حتى يتطور الأمر إلى مستويات متقدمة أين يشكل وعي الآخر موقفا نهائيا متحفظا بل وسلبيا من الإسلام وخائفا منه ومن المسلمين.

إن الاشتقاق اللغوي لمصطلح الإسلاموفوبيا يعكس في الحقيقة عمق دلالاته المفاهيمية، ففي تجلّيه الحقيقي وبنية معناه يعني حالة الخوف الزائدة من الإسلام، وهي حالة نفسية ناتجة عن الكراهية الشديدة تؤدي إلى فقدان اتزان المنطق العقلي في التعامل مع الإسلام و أتباعه، تلك الحالة تترسب تدريجيا وتتكسر وتزيد شيوعا في صورة قلق مرضي وخوف نفسي لا شعوري لدى الغرب من ذلك الدين وكل ما يتصل به، ومن هنا فالإسلاموفوبيا إجمالا هي ولادة الخوف وتوليدته من الإسلام وأهله والعمل على اشاعته في العالم أجمع، وذلك عن طريق شن حملات مشحونة بالدسائس والأكاذيب الموجهة إلى الإسلام وحضارته، لذا فالمصطلح من إنتاج الحملات الضارية المشوهة لهذا الأخير². وعلى هذا الأساس ليست الإسلاموفوبيا في الواقع إلا ذلك المصطلح الذي يعكس ظاهرة نفسية وأخرى اجتماعية وإيديولوجية يتبناها الأفراد والجماعات على حد سواء، وإذا كان المصطلح قد استخدم في تسعينيات القرن المنصرم إلا أنه بقي نادرا وغير متداول بشكل كبير ومتكرر نظرا للعديد من الظروف والملابسات حتى جاءت هجمات الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية التي أعادت إحياءه وسرّعت من مستوى استعماله.

هذا وقد انتقل المصطلح أي الإسلاموفوبيا (رهاب الإسلام) من اللغة الإنجليزية إلى بقية لغات العالم دون استثناء وبقي محافظا على صيغته الاصطلاحية ومعناه الدلالي بالشكل نفسه، فعلي سبيل المثال في اللغة الفرنسية كان أول من استعمله هو مالميه اميل (Mallet Emile) في مقال بعنوان :

"ثقافة وحشية" نشره في جريدة Le Monde وتحدث فيه عن صنف من الإسلاموفوبيا الزاحفة³، وفي عام 2005 دخل مصطلح الإسلاموفوبيا إلى المعجم الفرنسية بدءا بمعجم (Le petit Robert) الذي عرّف الإسلاموفوبيا على أنها: "شكل خاص من الحقد موجه ضد الإسلام والمسلمين يتجلى بفرنسا في أفعال عنائية وتمييز عنصري ضد المهاجرين المنحدرين من أصول مغاربية"⁴.

هكذا إذا ليست الإسلاموفوبيا سوى ذلك المصطلح الذي ظهر في العالم الغربي وبدأ في التشظي وعملية الانتشار والتداول بعد ذلك ضمن مجموع اللغات العالمية، وأصبح يعكس كما تقدم التحفظ على الإسلام والمسلمين، بل والتحامل عليهم وتغذية الكراهية ضدهم خاصة في أعقاب هجمات 2001/09/11. فالغرب الآن أكثر من أي وقت مضى يربط بشكل مباشر وسريع بين الإسلام والمسلمين من جهة، والإرهاب والعنف من جهة أخرى، هنا يختزل الوعي الغربي في قطاعاته الواسعة وشرائحه المختلفة أن الإسلام معاد للغرب في حد ذاته ولا يمكن أن يتلاءم -يتعايش- معه، بل إنه يشكل خطر حقيقي عليه، فهو يهدد وجوديا المجتمعات الغربية ومنظومة ثقافتها، إنه دين يريد أن ينسخ كل القيم والتصورات الغربية المضادة له، وهذا بالذات ما جعل من هؤلاء يحيطونه ويلفونه بسياج (Clôture) من الخوف والرهبة والدعوة إلى مجابهته، بل وحتى إلى المبادرة لمهاجمته بدافع التخلص منه، أو على الأقل وقف زحفه وانتشاره المتسارع.

إن الإسلاموفوبيا أو رهاب الإسلام حتى وإن كان مصطلحا ونوعا من الوعي السلبي الذي يتمثله الآخر-الغربي حول الإسلام والمسلمين ليس بالظاهرة أو المسألة الحديثة العهد وفق ما يتصوره البعض، فإنها ذاتها وجذورها الأولى تنفذ إلى تاريخ ممتد في الحضارة البشرية، ولعل استدعاء جدل الصراع بين الإسلام والمسيحية يمكن أن يبيّن بشكل ما ظاهرة الإسلاموفوبيا، فالحروب الصليبية قبل عشرة قرون تعكس في الحقيقة تلك الظاهرة أو الخوف من الإسلام ذلك أن الأوروبيين ابتداء من القرن 11م قرروا غزو بلاد الإسلام والقيام بحملات منظمة عسكرية ودينية صليبية تستهدف علنا استرجاع مقدسات المسيحيين من المسلمين، والاستيلاء على أراض واسعة وخاصة تلك الواقعة جنوب المتوسط، باعتبارها إرثا للكنيسة من المسيح والرومان. من هنا يتضح جليا أن تلك الحملات وجه من أوجه رهاب الإسلام التي تعكس غياب روح التسامح والتسامح الديني (La Tolérons Religieuse) الذي تجسده وتؤمن به المسيحية ذاتها، لأن الإسلام وفي بداية فتوحاته للأراضي البعيدة عن الجزيرة العربية وسرعة انتشاره في العمق الآسيوي والأوروبي صنع أو بلور خاصة بالنسبة للأوروبيين وعيا معينا يتجلى في استمرار امتداده وانتشاره كخطر زاحف، على الرغم من أنه في حركته التاريخية لم ينتشر بحد السيف وإنما عن طريق عقيدته وأفكاره وسلسلة قيمه إذ « لآ إِكِّرَاهَ فِي الدِّينِ ۗ » كما جاء في النص القرآني فلا إيمان بالعنف أو الإرهاب أو القوة في منظوره الدعوي، ولا أدل على هذه الفكرة في أن الإسلام ضمن للمسيحيين وأهل الذمة في الشرق كل ممتلكاتهم، وكفل لهم القيام بشعائهم وحفظ لهم مقدساتهم، ولو كان الأمر عكس كذلك لكانت البداية من إقصاء كل هؤلاء.

هكذا إذا يمكن القول إن الإسلاموفوبيا كظاهرة ليست حديثة أو معاصرة بقدر ما هي قديمة وتاريخية فالإسلام كإيديولوجيا وتصورات حياتية وأخرى غيبية لا يتطابق مع بعض ما يؤمن به الغرب، أو لنقل يتعارض عمليا مع عقيدته وأفكاره، فنشأ بذلك الخوف أو رهاب الإسلام، لأن هناك بون شاسع بين قيم وتصورات هؤلاء من جهة، وبين القيم والتصورات التي قَدِّمها الإسلام ويطالب بتجسيدها من جهة أخرى، وقد استمر هذا الأمر-أي الخوف من الإسلام- في التاريخ ولكن بشيء من الاختلاف، حتى أنه يجوز لنا القول أن الاستعمار الحديث لبلاد الإسلام ليس إلا مظهرا جديدا من مظاهر العداء والكراهية للإسلام وهذا بطبيعة الحال من منطلق ذلك التصور الذي يرى في الإسلام خطرا كبيرا يتمدد شيئا فشيئا أمام تراجع المسيحية وتقلصها، وقد يكون من المناسب جدا أن نتحدث هنا عن الاستعمار الغربي وبعض الممارسات التي تمت في هذا الإطار، فقد عمد إلى استهداف ذلك الدين بشكل مباشر من خلال محاولة استحداث تصورات جديدة حول الإسلام من جهة، والقضاء أو الحد من قوته عند السكان الأصليين، من خلال تضييق الحريات الدينية، والتحكم في دور العبادة وتقليصها إلى مستويات قياسية تماما كما حدث في الجزائر حيث حولت العديد من المساجد إلى كنائس أو ثكنات أو مخازن وتناقص عددها بشكل كبير، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل وصل إلى غاية القيام بتحريف وتزييف الكتاب المقدس الخاص بالمسلمين، ومن أمثلة ذلك طبع القرآن الكريم بطبعات محرفة كالتي ظهرت في مصر وانتشرت في بداية القرن العشرين⁵.

إن هذا الموقف وبقية المواقف الإيديولوجية-التاريخية التي تبناها الغرب وعمل على تجسيدها لا يمكن أن تقرأ بعيدا عن مسألة الخوف من الإسلام والرغبة منه، حتى وإن كانت النزعة الاستعمارية تعكس أسبابا وعوامل أخرى ولكننا نعتقد أن الغرب وكما جاء في الصفحات السابقة ومنذ القرن الحادي عشر وبداية الحروب الصليبية وإلى غاية القرن العشرين ظل يرى في الإسلام هو العدو الحقيقي والأبدي له، وهذا بطبيعة الحال لعدم تطابق الأفكار والعقائد التي يتمثلها كل منهما. هنا نكتشف أن الدراسات الغربية وفي مقدمتها علم الاستشراق (L'orientalisme) وفي قسم واسع منه تبنى هذه الأطروحة وعمل على تعميقها وتغذيتها من خلال تقديم أفكار خاطئة حول الإسلام والمسلمين، وتصويرهما على أنهما وراء كل شرور العالم ومشاكله، ولكن ومن دون شك لا يجب أن ننكر بموازاة ذلك أن هناك دراسات في الحقل نفسه كانت تحارب ظاهرة الطابع السلبي الذي يلف هذين الأخيرين في الوعي الغربي في هذا الإطار نذكر أسماء العديد من المستشرقين كأمثال الفرنسيين جاك بيرك، كلود كاهن، ماكسيم رودنسون والألمانية زيغريد هونكه وغيرهم فقد قدموا صورة ذهنية ناصعة وموضوعية عن الإسلام والمسلمين، بل إنها كانت تعكس ذلك الفضل التاريخي والمعرفي الإسلامي على الغرب، وترفض بالملطوق ما أصبح يطلق عليه اليوم الخوف من الإسلام ورفضه.

إن الإسلاموفوبيا حتى وإن كان كمصطلح صيغ وبدأ تداوله في النصف الثاني من القرن العشرين، إلا أنها كظاهرة قديمة متجذرة في التاريخ، ولكن الأمر المثير والذي أصبح جدياً هو زيادة وشدة التحامل والكرهية والخوف من الإسلام والمسلمين، وخاصة في أعقاب هجمات 2001/09/11، وهذا بناء على غياب إدراك ووعي حقيقيين بمضمون كل ما له صلة بالإسلام الحقيقي والأصيل، فالتخوفون من الإسلام أو الإسلاموفوبيون يحكمون على الإسلام بصورة سطحية تبعاً لتصرف جزء يسير ممن ينتسبون إليه ويدعون التمثيل الحقيقي له، فعلى سبيل المثال وحتى مع افتراضنا أن تلك الهجمات -هناك نظرية في هذا الإطار تطرح بقوة فكرة المؤامرة- السابقة أو غيرها قام بها المسلمون أو تلك الجماعات المتطرفة والناشزة، فإنها في الواقع لا تعكس رؤية الإسلام وعقيدته وإيديولوجيته، فهو يدين كل أشكال التوظيف الديني والسياسي والحضاري في الاعتداء على الآخرين مهما اختلف معهم، والآيات في هذا الإطار كثيرة ومتعددة، ولكن يبدو أن ظاهرة الإسلاموفوبيا التي تسود الآن الغرب وتتناسل بشكل غير عادي يتضح أنها غير بريئة، انطلاقاً من بداية تغلغل الإسلام بشكل سلمي وسلس في الغرب المسيحي عن طريق اعتناقه من طرف المئات من الغربيين وهذا فضلاً عن زيادة أعداد المسلمين المهاجرين إلى البلدان الغربية، وعلى هذا الأساس ينصور بعض الباحثين أن الإسلاموفوبيا ترتقي بهذا الطرح لأن تكون نوع من العنصرية الدينية، تتجاوز وتكسر كل قواعد حقوق الإنسان التي لطالما تغنى بها الغرب وأعلن تفوقه بها، لذلك فرهاب الإسلام اليوم ليس في الواقع إلا نوعاً من شيطنة الإسلام والمسلمين ومحاولة حشر هذين الأخيرين في الزاوية، لأنهما في اعتقاد الغرب يعكسان تياراً مضاداً للرؤية الغربية التي تبلورت ابتداءً من الأزمنة الحديثة، ولهذا وجب مجابهتهما إيديولوجياً قبل أن يكون ذلك عملياً عن طريق تشكيل نمط من الوعي والتفكير الذي لا يتبنى الموقف الموضوعي منه، وإنما يحكم عليه ظاهرياً وبشكل متسرع، وقد يكون من المناسب في هذا السياق أن نذكر الآن أن الغرب إذا كان في وقت سابق قد حرك آلة الدراسات الاستشراقية-العنصرية لصناعة الكراهية والخوف من الإسلام؛ فإنه اليوم يستعمل آلة جديدة ومنهجية بديلة لا تقل أهمية عن سابقتها، وربما أكثر فعالية وخطورة، إننا نقصد هنا الإعلام بكل أشكاله، خاصة في ضوء التطور التكنولوجي الرهيب والمتسارع، من هنا نقول إن هذه الآلة أقوى وأكثر تأثيراً من الدراسات الأكاديمية بحكم أنها تستطيع أن تلامس فكر ورأي أي إنسان على درجة بساطته وتكوينه العلمي والمعرفي وبهذا أصبح الإعلام في الوقت الراهن عبارة عن سلطة (Pouvoir) أو قوة ناعمة تمارس سيادة (Autorité) على آراء وأفكار البشر وتساهم في بلورة وعيهم وصناعة صورهم الذهنية وهو الشيء الذي يحصل الآن بالنسبة للإسلام، ولكن للأسف من منظور سلبي. إلا أن السؤال الذي يبرز هنا ويطرح نفسه بإلحاح هو: كيف يعمل الإعلام الغربي على صناعة الصورة الذهنية والنمطية عن ذلك الآخر (الإسلام)؟

3- صورة الإسلام في الإعلام الغربي:

لكي نضيء ونفهم مسألة الإسلاموفوبيا لابد من فهم حقيقة العلاقة بين الإسلام والمسلمين من جهة، والإعلام الغربي من جهة أخرى، فهذه الظاهرة التي أصبحت تتفاقم تدريجيا في أعقاب هجمات 2001/09/11 وتتناسل بشكل غير طبيعي أين تزايدت وتيرتها وهو الأمر الذي لا يمكن فصله عن الرؤية الإعلامية المقدمة لذلك الآخر، وبمعنى آخر نستطيع الجزم أن الصورة الذهنية التي يستهدف ذلك الإعلام رسمها في مخيال (Imaginaire) غير المسلمين باتت أكثر سوادا بل الأسوأ من ذلك عندما تتحول تلك الصورة الذهنية إلى شكل من أشكال الوعي النمطي يربط بشكل سريع وكلي وتعسفي بين العنف والإرهاب والتعصب والإسلام ما يعني أن هذا الأخير لا يحمل في منظور الآخر إلا مضامين سلبية وهذا بالذات من شأنه أن ينتج ذلك الرهاب والخوف منه، ويتحول في وقت من الأوقات إلى كراهية (عنصرية) وإدانة متتالية له.

إن الحقيقة التي يطلعنا عليها الواقع بكل أشكاله اليوم سواء منه المعاش أو الافتراضي هي أن الإعلام الغربي وفي قسم واسع منه لا يتخلف في الربط بين الإسلام والمسلمين من جهة، والعنف والإرهاب من جهة أخرى، وهذا من دون شك كما أسلفنا الذكر سيمنح قدرا كافيا لبناء التصورات والأفكار وكل أشكال الوعي التي تتشكل في أعقاب المشاهدة والانتباه لجملة المعلومات والمادة الإعلامية المقدمة على مستوى ذلك الإعلام، نظرا لزيادة ضغط هذه الأخيرة وصعوبة تنازل الأفراد والجماعات عن تلك الأفكار والتصورات أو على الأقل محاولة تعديلها وتصحيحها، لذلك فالعديد من الباحثين يصرّون على أن الإعلام بمختلف وسائله أصبح الآن عاملا هاما يتدخل مباشرة في تشكيل الصورة النمطية عن الأفراد والشعوب والأديان والإيديولوجيات من خلال ما يبثه من أحداث إخبارية وبرامج تليفزيونية وغير ذلك، وقد ساعد في ذلك سرعة انتشارها وقدرتها البالغة على استقطاب والاستحواذ على رغبة المتلقي⁶، وإذا ما طبق هذا الأمر على الإعلام الغربي نجده يدفع باتجاه بناء صورة ذهنية-نمطية عن الإسلام والمسلمين من خلال تبني منهجية محددة في تناول كل ما يرتبط بهذين الأخيرين، وعندما نقول منهجية محددة فإننا نقصد تلبس الحقيقة وتغليب الرأي الفردي والعام حول الإسلام، إذ أنه يمارس نوعا من التحريف والتزييف ويرسّخ مفاهيم خاطئة وأفكارا معادية تشيطن كل ما يرتبط بذلك الدين ومعتقديه من قريب أو من بعيد، فوسائل الإعلام الغربية تضخ يوميا وبأشكال مختلفة ودرجات متفاوتة معلومات وآراء حول الإسلام والمسلمين في وعي المشاهدين والمستمعين والقراء وهي معلومات وآراء غير موضوعية ودقيقة بل وغير أخلاقية تقتفر إلى الأصول القيمية في الكثير من الأحيان، حيث تخدم في الواقع توجهات فكرية وسياسية وثقافية وحتى دينية⁷.

هكذا إذا تبدو صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي، وهي صورة ذهنية-نمطية أصبحت تختزل في ذلك المفهوم المتداول الآن أي الإسلاموفوبيا، فالإعلام الغربي بطريقة أو بطريقة أخرى ينتج في الواقع هذه الظاهرة ويعمل على تناسلها في مختلف الأوساط الرسمية وغير الرسمية: السياسية،

الثقافية، الأكاديمية، الاجتماعية... الخ. هنا من المنطقي جدا أن يتم التساؤل عن أسباب ذلك، وبمعنى آخر يا ترى لماذا يتبنى الإعلام الغربي هذا الموقف؟ ولا يحاول أن يؤسس لصورة موضوعية قيمة أخلاقية عن الإسلام والمسلمين.

في الواقع وحتى قبل أن نقدم على تشخيص علم-ابستيمولوجي لهذه الظاهرة، أي إنتاج وصناعة الإسلاموفوبيا⁸ تشير إلى أن هناك من يرفض هذا الطرح ضمن الرؤية الإعلامية الغربية ويدعي الموضوعية في كل تناول لمسائل الإسلام والمسلمين، ولعل التجلي الأول في هذا السياق والذي يعكس حجم الخوف من هذين الأخيرين فيه هو تصويرهما على أنهما غريبين عن الغرب ذاته من حيث المرجعية الفكرية والعقائدية وكذا التفكير الديني، فالغرب مسيحي، والمسلمون غير ذلك وهم معادون لكل ما هو خارج عن دينهم، ومناهضون لكل من يختلف معهم، فهم لا يعترفون بالآخر ولا يتسامحون معه، وهذا يطرح في الواقع أخطر مسألة يعاني منها المسلمون الآن وهي إلصاق تهمة الإرهاب والعنف بهم. والعالم الغربي بدوره لا يتخلف عن الترويج لهذه الصورة، ويصل إلى حد أن الإسلام هو مصدر كل الشرور، وهو العدو الجديد للعام للحر بعد زوال خطر الشيوعية⁹.

وحتى تضيء وسائل الإعلام الغربية نوعا من المصادقية على ما تقدمه من أفكار وآراء ومواقف عن الإسلام فإنها تستدعي عمليا أعمال العنف والإرهاب والإسلام وتقرن سببيا بينهما، وخاصة ذلك العنف الذي طال-ويطال الآن-العديد من البلدان العربية والذي تقوم به حركات إسلامية أصولية متطرفة وجامحة وكذا الاستشهاد بالعمليات التي حدثت بدءا من هجمات 2001/09/11 وما تلاه من نظيراتها في أوروبا (باريس، مدريد، لندن)، وأصبحت في عقيدة الإعلام الغربي سلوكيات وأعمالا تسوق على أنها نهج وقناعة يحملها الإسلام والمسلمين. هذا الأمر تحول في الواقع إلى مصدر حقيقي يغذي التناولات الإعلامية الغربية، ويصور الإسلام والمسلمون على أنهما عدوان لكل ما هو غربي، وعليه فإن أصل الصراع أصبح إيديولوجيا بين عقيدتين وفكرين يختلف أحدهما عن الآخر والإسلام هو من يرفض الآخر وليس العكس وقد كان من شأن كل هذا أن أصبح الإسلام يوصف بالإرهاب وأصبح كل مسلم هو إرهابي¹⁰. مثل هذا الأمر عزز في الحقيقة من اتخاذ العديد من الإجراءات العملية من طرف الغرب اتجاه المسلمين سواء من ناحية الصورة الذهنية التي يجب أن يتمركز ضمنها الإسلام والمسلمون كونهما سلبيين، أو من جهة التدخل المباشر وغير المباشر في الشؤون الداخلية لعديد البلدان الإسلامية وتنفيذ المخططات أو الاستراتيجيات الخاصة بها تماما كما حصل في العراق وأفغانستان وما يحدث الآن في سوريا.

إن الإعلام الغربي كسلطة تتدخل في تشكيل الوعي والمخيل الغربي حول الإسلام والمسلمين وتوجه كل ذلك ضمن نظام معين لا يروج في الواقع إلا لجانب سيئ وقبيح حول هذين الأخيرين، ومن مثل ذلك عندما يتم الربط الكلي والراديكالي عقيدة وفكرا بين الجمود والبدائية والتخلف واللامنطق من جهة، والإسلام من جهة أخرى، وأنه لا يملك مقومات الحضارة، ويفتقر لروح التسامح والتعايش مع الآخر، هذا بالذات ما جعل من النخب وصناع القرار وواضعي الاستراتيجيات الغربية وكل من يشوه

صورتها في مختلف وسائل الإعلام يمثل تهديدا حقيقيا للمصالح الغربية ويدمر عمليا النظام الديمقراطي ويقضي على الحريات في العالم الغربي¹¹، ولعل تجليات ومظاهر الرجعية والتخلف حسب الرؤية الغربية حول الإسلام والتي يسوقها الإعلام الغربي هي تلك المقابلة بين قيم وثقافة الإسلام الأخلاقية من جهة، وقيم وثقافة الغرب من جهة أخرى هذه المقابلة أصبحت في المرحلة الأخيرة وعيا حقيقيا يتمثله الغربي ويهاجم به الإسلام، ذلك أن الرؤية الإعلامية الغربية لا تكف عن تعميق تلك المقابلة وتستمر في تصوير الإسلام على أنه غريب أو دخيل عن المجتمعات الغربية الأمر الذي يجعله يمثل خطرا حقيقيا عليها لأنه يهدد نمط حياة الغربيين من خلال سرعة انتشاره واعتناق الغربيين أنفسهم لهذا الدين، ما يعني التأسيس لبداية تراجع مشروع الحضارة الغربية واختفائه تدريجيا، وقد يكون من المناسب في هذا الإطار أن نستشهد بسلسلة من المقالات الأمريكية والبريطانية التي تعكس هذا الكلام.

1- بيتر رودمان "لا تبحث عن المعتدلين في الثورة الإسلامية" International Herald Tribune 1995/01/04.

2- فورغوس بوردويش "الحرب المقدسة في طريقنا" 1995/01 Readers Digest.

3- توماس كامان "صراع الثقافات: تصاعد الإسلام في فرنسا" Wall Street Journal 1995/01/05.

4- "الربع الإسلامي: انتحار شامل" 1995/01/01 Sunday Telegraph.

5- "الجزائريون في لندن مصر الإرهاب الإسلامي" 1995/01/01 Sunday Times.

هذه المقالات وغيرها -وهي كثيرة- يتم تداولها في الإعلام الغربي مثل "الهلال الجديد في أزمة الانتفاضة العالمية" و"الإسلام الصاعد يكتسح الغرب" ومقال جريدة (Le Figaro) الفرنسية بعنوان: "هل سنكون فرنسيين في عام 2025؟" والذي يدل على مدى خوف الأوروبيين من الغزو العربي والإسلامي -المغاربي- لفرنسا¹².

ومن المهم ونحن نتحدث عن مظاهر وتجليات كراهية الإسلام والخوف منه أن نشير إلى ذلك التسويق الإعلامي الذي تتعرض له معالم الإسلام ذاته ورموزه الدينية، وبمعنى آخر الموقف من القرآن الكريم ونبي الإسلام وأماكن العبادة والمرأة المسلمة. فبالنسبة للقرآن الكريم لطالما روج ويروج الإعلام الغربي على أن هذا الكتاب يحرض على العنف، وعدم التسامح مع من لا يؤمنون به من خلال اختيار آيات معينة منه والاستشهاد بها على أنها مثال للدعوة إلى الإرهاب والاعتداء على الآخر وهذا بطبيعة الحال في إهمال وجهل معرفي وتيولوجي (لاهوتي) بالسياق التاريخي والفقهية الذي جاءت في معرضه تلك الآيات، من هنا فالحقيقة لا تقدم كما هي، وإنما تغلف بأفكار وأوهام ستصنع لاحقا صورة ذهنية عن ذلك الكتاب المقدس وغير بعيد عن هذا الأمر عمل الإعلام الغربي في المرحلة الأخيرة سواء في أجهزته - ووسائله المقروءة أو المشاهدة على تقديم صورة ذهنية مشوهة عن الرسول (ص) وتتعرض في أحيان كثيرة إلى مشاهد كثيرة تصوره على أنه محب للمال والنساء، وتارة أخرى على أنه مجنون ساحر، وتارة

أخرى يتم تصويره بذلك البدوي المتخلف، كما يقوم بنشر -أي ذلك الإعلام- أفكارا لا تليق بشخصية وفكر هذا الرسول وحياته، وقد وصل الأمر في ذلك إلى حد احتقاره والاستهزاء به وهذا سواء عن جهل أو عن علم بذلك¹³. ولعل ما فعلته الصحيفة الدنماركية يولانديس بوستن (Jyllands-Posten) في سبتمبر 2005 لدليل واضح على ذلك، فقد قامت بنشر 12 صورة كاريكاتورية للرسول (ص) ولحقتها بعد ذلك العديد من الصحف الأخرى في كل من النرويج، ألمانيا، فرنسا تلك الصحيفة نشرت مقالا تحت عنوان: "وجه محمد" متبوعا بتلك الصور الكاريكاتورية التي تظهر إحداهما عمامة الرسول (ص) على أنها قنبلة بفتيل، في إشارة واضحة للربط المباشر بين النبي(ص) والإرهاب والعنف، وقد تذرعت الصحيفة بأن هذا الأمر لا يدعو أن يكون حرية رأي وتعبير. في السياق ذاته أقدمت مجلة فرنسية هي شارلي إيبدو (Charlie Hebdo) على تخصيص عدد في سنة 2002 يحمل تعليقات مسيئة للرسول (ص) أما في سنة 2013 فقد خصصت عددا بعنوان "حياة محمد، ج1، بدايات رسول" حيث حمل في طياته تعليقات مسيئة لنبي الإسلام، ومعلومات مشوهة ومضللة عن السيرة النبوية، خاصة ما يتعلق بولادة الرسول وزوجاته وكانت أبرز إساءة من طرف هذه المجلة هي تلك التي ربطت فيها بين الأعمال التي يقوم بها تنظيم ما يعرف بـ"الدولة الإسلامية في العراق والشام" من جهة والنبي(ص) من جهة أخرى، وتساءلت بالقول: "إن الحديث يكثر عن "محمد" وكثير من الأشياء ترتكب باسمه، فماذا سيحدث لو عاد من قبره؟".

ليس هذا في الواقع إلا جزءا من كل، فما أكثر الخطاب الإعلامي الغربي الذي يتبنى نهج الإسلاموفوبيا ويدفع باتجاه رسم صورة نمطية عنه في الوعي الغربي تسيئ بشكل مباشر للإسلام والمسلمين وتشيطنهم، فهي في تناولها لدور العبادة والمساجد في أوروبا تصورهما على أنها معاقل للفكر الجهادي والتحريض على كراهية الغربيين وأنها مراكز لتكوين الإرهابيين والمتطرفين، وقد يكون من الحقيقي أن نشاهد هذا الأمر ومدى جديته بالنسبة للسياسيين والمسؤولين الغربيين تماما عندما يتم التضييق على حرية العبادة هناك، ومحاولة عدم تقديم التسهيلات من أجل تقديم المساعدات لتلك الدول بداعي أن ذلك ما هو إلا تمويل للتطرف والإرهاب.

مظهر جديد يعكس كراهية الإسلام والمسلمين في خطاب الإعلام الغربي، والذي يتجلى في تناوله لوضع المرأة في الإسلام، حيث تظهر ضمن مستويات دونية متخلفة، وأنها توصف بعدد الأوصاف كألة للإنجاب، الشبح الأسود المنغلقة والمتحجرة، ومهضومة الحقوق، وعدم مساواتها بالرجل، إنه يصورها في حالة من الاستعباد والاستعمال الغائي في المجتمعات الإسلامية التي يسوق لها على أنها مجتمعات ذكورية لازال النظام الأبوي هو السيد فيها، ولعل مسألة تعدد الزوجات، والحياة الجنسية للنساء مثال على الموقف السلبي من الإسلام، ولكن حقيقة الأمر أن التناول الجدي والعميق لكل المسائل النسوية التي نظر إليها الإسلام لا تطرح بحقيقتها، فمثلا حين يتم الحديث عن تعدد الزوجات فالأحرى أن يوضع في سياقه، فالإسلام انتهى من الناحية الفقهية والعملية إلى تحريم ضمني لتعدد الزوجات والنهي عنه، ومراجعة الآيات التي تتكلم عن هذه المسألة وقراءتها قراءة عقلانية تؤكد ذلك، ثم إن اعتبار المرأة موضوعا للرغبة

الجنسية للرجل كما يصورها الإعلام الغربي ليس صحيحا من منطلق أن المسلمة تمارس حياتها الجنسية وفق ضوابط وأعراف أخلاقية وشرعية، وهذا عكس ما هو موجود في الغرب ذاته، الذي جعل المرأة سلعة يتم المتاجرة بجسدها ويقنن ذلك الأمر ويتم تشريعه. أليست هذه هي المفارقة العجيبة؟ صف إلى ذلك أن الإعلام الغربي يهاجم المرأة المسلمة من خلال ازدواجية المعايير التي يتحدث بها، ففي الوقت الذي يهاجم المسلمات في حجابهن ويعتبره رمزا للتخلف وانتقاصا فاضحا أو قاسيا لحريتها، فإنه في الوقت نفسه ينظر للراهبات والمتدينات المسيحيات بأنهن تمتثلن للأمر الإلهي، وإذا كان مكوث المرأة المسلمة في البيت يعد اقضاءً واستعبادا، فإن المرأة الغربية متى تمكث في بيتها يصبح ذلك بمثابة تضحية تستحق عليها الشكر والثناء¹⁴.

إن ما قيل حول عدم موضوعية الإعلام الغربي في تناوله لقضايا الإسلام والمسلمين، وكذا تغذيته المستمرة والمتوترة للإسلاموفوبيا ليس إلا واقعا معيشا لا يمكن أن يختلف حوله اثنان، فهذا الإعلام بكل أجهزته سواء المقررة أو المرئية أو المسموعة يقدم رسالة أحادية الجانب غاية في السلبية للرأي العام حول الإسلام، وقد كان من شأن ذلك أن تحول هذا الأمر إلى حركات سياسية تجسدت في ذلك الصعود السريع للحركات الشعبوية واليمينية المتطرفة التي تعادي المسلمين وتعتبرهم خطرا فعليا يهدد وجودها المجتمعات الغربية، ويدعم هذا الكلام بعض الدراسات الغربية الحديثة التي أكدت أن ما بين 60 % إلى 80 % من إصدارات الإعلام الخاص والحكومي على سبيل المثال في ألمانيا تربط بين كلمة الإسلام والعنف الجسدي وبقية الظواهر السلبية كالإرهاب والتعصب، فضلا عن الرجعية والتخلف، وفي خضم هذه النظرة الانتقائية للإسلام أصبح الإعلام الغربي يصور هذا الأخير على أنه بوتقة للفوضى والخوف¹⁵.

أمام هذا التصوير السلبي درج الإعلام الغربي على بناء وهم -وصورة نمطية- أصبحا منذ انهيار الاتحاد السوفياتي بعد هجمات 2001/09/11 حقيقة فعلية تؤمن بها قطاعات واسعة في المجتمع الغربي، خاصة عندما يصبح المجتمع الإسلامي هو العدو المطلق والأبدي لذلك الأول وهو مجتمع معاد لكل قيم الحرية والديموقراطية والانفتاح والتسامح والتعدد، وتزداد حدة قتامة الصورة الذهنية-الغربية عن الإسلام والمسلمين عندما يروج الإعلام الغربي لثنائيات متقابلة كثنائية "أرض الظلام" و"أرض النور" و"التقدم" و"التخلف" و"الانفتاح والتسامح" و"الرجعية الأصولية واللاتسامح"... الخ هذه الثنائيات جرت إلى مضاعفة شدة الكراهية للإسلام، وزيادة مستويات الرهاب منه، ففي أوروبا حوالي نصف سكان القارة الأوروبية يعتبرون أن الدين الإسلامي أكثر عنفا من بقية الأديان، ويعتقدون أنه لا يتماشى مع الثقافة الغربية، وفي بعض مناطق أوروبا تصل نسبة العداء للإسلام بشكل علني إلى ما يزيد عن 70% إلى 80%، ويعتبر الانفجار الذي وقع في مدينة أوكلاهوما 1993 مثلا معبرا عن طبيعة الإدراك الغربي والأمريكي بالتحديد، حيث قامت أهم القنوات كـ : CNN, FOX Station, CBS بربطه مباشرة بانفجار المركز التجاري ثم نادى بضرورة إعلان "حرب مقدسة ضد الإرهاب الشرق أوسطي"، وقد تم

تسجيل أكثر من 200 حادث عنف ضد أمريكيين مسلمين في الأيام الثلاثة الموالية، وكشفت نتائج استطلاعات للرأي آنذاك على أن 50% من الأمريكيين يعتبرون أن المسلمين معادون للغرب.¹⁶

4- أسباب صناعة الإعلام الغربي للإسلاموفوبيا:

لم يعد ممكنا إخفاء ظاهرة الإسلاموفوبيا أو تجاوز نتائجها، فهي وإن كانت تأخذ أشكالاً مختلفة إلا أن توترها وقمة استحكامها في الوعي والصورة الذهنية الغربيين يبرزان في تلك الكراهية والعنصرية والدعوة إلى محاربة كل ما يرتبط بالإسلام والمسلمين، فلقد أصبحت هوسا يسيطر على عقول ونفسيات قطاعات واسعة من الغربيين، ولعل الحديث الآن والاستشهاد بالموقف الأمريكي في مثل هذا الموضوع- كنموذج- دليل واضح على ذلك، فالإسلاموفوبيا تسود الآن وحتى قبل هجمات 2001/09/11 جميع مستويات الحياة الأمريكية من اليمين إلى اليسار ومن المتدينين إلى الملحدين. فالرئيس الأمريكي السابق جورج ووكر بوش وداعموه أشخاص سيطر عليهم هوس الإسلاموفوبيا ويعتقدون أن كل مسلم "حقير أحمق وإرهابي" ومن ناحية أخرى فإن الديمقراطيين والليبراليين يعمدون بسهولة إلى نشر التنظيمات التي تستدعي لا عقلانية العرب والمسلمين وعدائهم للحدث من أجل تبرير دعمهم لهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية¹⁷، واليوم نرى هذا الرئيس الحالي لهذه الأخيرة أي دونالد ترامب يرى في الإسلام والمسلمين هما الخطر الأول الذي يهدد بلاده، وقد كان من نتائج استحكام رهاب الإسلام و كراهيته له أن اتخذ إجراءات تمنع دخول سبع جنسيات من دول إسلامية إلى بلاده.

إن كراهية الإسلام والخوف منه من دون شك تغذيها أطراف وعناصر متعددة، ومن دون شك وكما حاولنا أن نبين في الصفحات السابقة أن الإعلام الغربي-إلا القليل منه- يعد إحدى تلك الأطراف والعناصر، فهو لا يتحلى بالموضوعية الإعلامية ولا يسعى لها، ويتجنب تقديم أو تناول قضايا الإسلام والمسلمين وفق ما هو واقع، بل إنه يساهم مباشرة في بلورة تلك الصورة الذهنية-المنطوية التي تضع دائما هذين الأخيرين في قفص الاتهام، إلا أن الأمر المثير هنا هو أنه إذا كان هذا هو حال الإعلام الغربي في علاقته بالإسلاموفوبيا، ونهجه الذي يحكم آلية عمله، فيا ترى ما هي الأسباب الحقيقية الكامنة وراء كل ذلك؟

في الواقع إن الإجابة عن هذا السؤال هي أعقد وأعمق مما نتصور ذلك أن الإعلام الغربي لا ينطلق من أسباب ذاتية-خاصة في إنتاج وصناعة الإسلاموفوبيا، وإنما يرتبط عمليا بطرف آخر هو في الحقيقة من يساهم فعليا في توليد الكراهية للإسلام والخوف منه، وبمعنى آخر إذا كان الإعلام الغربي هو المرآة التي تعكس الآراء والتصورات الذهنية والفكرية والسياسية والاقتصادية والعفائية للنخب والجماعات في الغرب؛ فإن هذا يدل بشكل مباشر على أن الإسلاموفوبيا من إنتاج وصناعة تلك النخب والجماعات، وليس الإعلام الغربي إلا ناطق بلسانها، ومن ثمة فإن القول بأسباب إنتاج أو صناعة الإسلاموفوبيا في دهاليز السياسة ومراكز الفكر والدراسات الأكاديمية وعالم الأديان واللاهوت ومجال المال والاقتصاد هي

نفسها أسباب إنتاج أو صناعة الإعلام الغربي لكراهية الإسلام ولكن ورغم كل هذا لا ننسى وجود بعض الأسباب الأخرى التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

1.4- الأجندة السياسية الغربية (الداخلية والخارجية):

يرتبط إنتاج الإسلاموفوبيا بتنفيذ المشروع السياسي للأحزاب والإدارات السياسية في الدول الغربية حيث أصبح في المرحلة الأخيرة الإسلام والمسلمون مادة دسمة لمشاريعهم الانتخابية، فمن الناحية الداخلية أصبح الحديث عن وقف زحف الإسلام وتقييد هجرة المسلمين يتصدر برامج الأحزاب السياسية المتطرفة في عموم الغرب، وهذا يعكس معاداة الإسلام من طرف التيارات الشعبوية واليمينية المتطرفة فبالنسبة لكل من حزب البديل من أجل ألمانيا (Pegida) وحزب الجبهة الوطنية الفرنسي، ودونالد ترامب تعتبر معاداة الإسلام عنصرا أساسيا في قلب الحملات الانتخابية والاستراتيجية الاتصالية. نذكر هنا أن معاداة الإسلام تمثل الآن صميم برامج الأحزاب المتطرفة في ألمانيا وفرنسا وهولندا والنمسا... الخ، حتى أصبح ذلك ينعكس في شعارات واضحة تعكس ذلك البرنامج على غرار "ضد الغزو الإسلامي"، "منع بناء المساجد"، "حظر بناء المآذن وارتداء الحجاب" ومن هنا يصبح الإسلام والمسلمون كبش فداء يستغل من طرف تلك الأحزاب إذا ما أرادت الفوز بالانتخابات بأي طريقة كانت¹⁸، وإذا كان هذا من الناحية الداخلية فإن نفس الأمر يتكرر من الناحية الخارجية وبالذات عندما يتم تصوير الإسلام والمسلمين على أنهما معاديين للغرب وبالتالي يجب اتخاذ مواقف صارمة منهما نذكر هنا سلسلة الحروب التي تم شنّها من طرف الولايات المتحدة الأمريكية في العراق وأفغانستان... الخ وكذا تصوير إسرائيل ضحية لرفض المسلمين لها. بل والأكثر من كل ذلك أن أيديولوجيا الإسلاموفوبيا في السياسة الأمريكية مثلا ليست مصادفة أو جهلا بل إنها تقدم على أساس الرغبة في الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية السياسية والاقتصادية وتوسيع نطاقها من خلال الحرب على الإرهاب الإسلامي على حد رؤيتهم وتعبيرهم¹⁹، كل هذا تحت مظلة نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان. وإذا كانت هذه هي السياسة الغالبة على برامج الأحزاب السياسية-الانتخابية، وإن معظم الأشخاص في الغرب ليس لديهم مصدر بديل للحصول على المعلومات الصحيحة حول واقع تلك البرامج أو موقفها من قضايا الإسلام والمسلمين فمن المنطقي أن تصبح وسائل الإعلام هي مصدر ذلك، فهي تشكل ثقافة هؤلاء ونظرتهم حول مسائل الإسلام والمسلمين، ولهذا يجمع الخبراء في علم الاتصال على أن وسائل الاتصال والإعلام تمارس تأثيرا قويا على الذهنيات والعقول والآراء، وهذا ما يعكس في النهاية ذلك التزاوج الفعلي بين الجانب السياسي والإعلامي، والذي لا يمكن أن ينكره أحد منا، ففوة السياسة ليست إلا قوة الإعلام، ثم إن الإعلام في الغرب يرتبط بسياسة خط تحرير تتجه في غالبتها إلى تغذية وإذكاء روح العداة للإسلام، أي أنها تعكس تلك البرامج السياسية بطريقة أو بطريقة أخرى.

2.4- الخوف من الإسلام:

يرى الغربيون أن الإسلام يشكل خطرا حقيقيا على نظام حياتهم ونمط تفكيرهم وأسلوبهم في العيش ويتعارض جذريا مع ثقافتهم ومنظومة قيمهم، حتى وإن كان بعيدا جغرافيا عن أوطانهم، ولكن وبالنظر إلى زيادة مستويات اعتناق الإسلام في الغرب في حد ذاته أصبح هذا الأمر بالنسبة للنخب هاجسا يؤرق مضجعهم، ففي دراسة أمريكية أجريت سنة 2015 خلصت إلى أن الإسلام هو أكثر الديانات انتشارا في العالم، وأن المسلمين في تزايد مقارنة مع اتباع الديانات الأخرى حيث من المتوقع أن يقارب عددهم بحلول 2050 عدد المسيحيين في العالم. هذا الأمر أصبح يعني في الوعي الغربي تهديدا وجوديا لقيم الحداثة الغربية والديموقراطية والحرية، أي انحسار المشروع الغربي وبداية زواله.

3.4- صراع الحضارات:

بداية من القرن العشرين وفي امتداد تاريخي لفكرة الخوف- كراهية الإسلام بدأت تطغى على الدراسات الأكاديمية الغربية أطروحة جديدة هي الصراع مع الإسلام، وأن هذا الأخير هو الخطر الحقيقي الذي يواجه الغرب اليوم، بطبيعة الحال بعد انتهاء أو سقوط الاتحاد السوفياتي مع نهاية القرن المنصرم، هذه الفكرة التي تبناها المفكر الأمريكي صامويل هنتغتون (S. Huntington) انطلاقا من أن "الولايات المتحدة الأمريكية (الحضارة الغربية) هي الأمة الوحيدة ذات الثقافة الأنجلوسكسونية والبروتستانتية"، وقد شحنت هذه الفكرة وعملت على ترويجها من خلال كتابه "صدام الحضارات" 1996، إذ يعتبر بمثابة أساس نظري لشرعية الصراع وعدوان الولايات المتحدة الأمريكية على الآخر والعالم الإسلامي يقول فيه: "المشكلة الأساسية بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية، بل الإسلام، فهو حضارة مختلفة، أفرادها مقتنعين بسمو ثقافتهم ومهوسون بضعف قوتهم، الفرنسيون هم أكثر تعلقا بثقافتهم من كونهم عنصريين"²⁰، ويقول في موضع آخر: "أربعة عشر قرنا من التاريخ تخبرنا أن العلاقات بين الإسلام والمسيحية، سواء الأرثوذكسية الشرقية أو الغربية كانت عاصفة غالبا، كلاهما كان الآخر بالنسبة لآخر، صراع القرن العشرين بين الديموقراطية الليبرالية والماركسية اللينينية ليس سوى ظاهرة سطحية زائلة إذا ما قورن بعلاقات الصراع المستمر والعميق بين الإسلام والمسيحية، الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت الغرب موضع شك وقد فعل ذلك مرتين على الأقل".

إن الإسلام وحضارته في نظر هنتغتون هما الطرف التاريخي والآني في الصراع مع الحضارة الغربية ذلك أن مكونات وتوجهات وإيديولوجيات كل واحد منهما مختلفة عن الآخر، وقد عزز من هذه النظرية زيادة مختلف أشكال العنف والهجمات التي حدثت ابتداء من 2001/09/11، أين تؤكد بوعي زائف أن الإسلام جاء مضادا ومعارضاً لكل ما هو غربي، وأن العلاقة معه لا يمكن أن تأخذ شكلا غير شكل التصادم والصراع مع حضارته.

4.4- الاستشراق الغربي المتحيز:

الاستشراق "أسلوب من التفكير قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي) ومعرفي (إبيستيمولوجي) بين الشرق والغرب... وهو يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق بإصدار القرارات حوله وانجاز الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه تدريسه، والاستقرار فيه، وحكمه: وبإيجاز، الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق، واستنبائه، وامتلاك السيادة عليه"²¹، انطلاقاً من عقيدة المركزية الغربية (Centralisme Occidentale) التي تعكس تكثف مجموعة من "الرؤى في مجال شعوري محدد يؤدي إلى تشكيل لجنة متجانسة من التصورات المتصلة التي تنتج الذات المفكرة ومعطياتها الثقافية على أنها الأفضل استناداً إلى معنى محدد للهوية، قوامه الثبات والديمومة والتطابق، حيث تكون الذات هي المرجعية الفاعلة في أي فعل سواءً باستكشاف أبعاد نفسها أو بمعرفة الآخر... وبين الذات الصافية والآخر الملتبس بالتشوه الثقافي (الديني والفكري والعربي) ينتج التمركز أيديولوجيا اقصادية استيعادية ضد الآخر وإيديولوجيا طهرانية مقدسة خاصة بالذات"²².

إن المركزية الغربية التي شكلت بنية الوعي الغربي والأوروبي بالتحديد هي التي جعلت من الدراسات الاستشراقية تضع كل ماله صلة بالإسلام والمسلمين على محك النقد، فالرؤية السلبية التي تغلف تلك الدراسات واضحة جداً في أعمال المستشرقين الكبار - على الرغم من وجود أعمال استشراقية كانت قمة في العلمية والتناول الموضوعي للإسلام وتراثه وثقافته كأعمال كلود كاهن ماكسيم ردونسون، جاك بيرك، زيغريد هونكه... الخ، فقد كانت دراسات عنصرية جداً صورت الإسلام وثقافته تصويراً رجعياً بعيداً عن الحضارة والتقدم، كمثال على ذلك نذكر ما قام به المستشرق غوستاف فون غرونوبوم (G.V.Grunebaum) حيث ألف كتابين هما "الإسلام القروسي: دراسة في الاستشراق الثقافي"، وهو مجموعة محاضرات ألقاها في الجامعات الأمريكية سنة 1945، وكتاب "الإسلام الحديث: البحث عن هوية ثقافية"، حيث يرى وفق رؤيته الاستشراقية أن العرب قوم بلا ثقافة وأن ثقافتهم لم تقدم أي إسهام في المعرفة البشرية، وأن دينهم غير خلاق وغير قابل للتطور استبدادي، معاد للإنسانية، ولهذا فالعرب والمسلمون غير قادرين على التغيير وفهم طبيعتهم وأنهم يتميزون بالخمول والسلبية، لذا فالحل الوحيد بالنسبة لهم هو تلقي التنوير من الغرب المتطور.

في ظل هذه النزعة المركزية الغربية التي تشبّع بها الاستشراق، والذي أنكر تماماً الحضور التاريخي للمسلمين وفضلهم على الغرب خاصة في العصور الوسطى، أصبحت أفكارهم ودراساتهم المعادية للإسلام والمسلمين هي المصدر الرئيسي لمختلف أنواع الوعي الغربي عن هذين الأخيرين فقد أنتجوا صورة ذهنية سلبية عن كل ما يرتبط بالإسلام، حتى تجاوز الأمر في بعض الحالات إلى تصوير الإسلام اليوم هو العدو والخصم الإيديولوجي للغرب²³.

5.4- الحركات الأصولية الجانحة:

نتابع دائما في اتجاه سلسلة الأسباب الفاعلة التي تغذي ظاهرة كراهية الإسلام والعداء له حيث توصلنا إلى أنها ظاهرة ليست بالجديدة بقدر ماهي متجذرة في التاريخ، فإذا كان الإسلام مثل منذ انبثاقه ثورة على كل الأطر العقائدية والقيمية والاجتماعية والثقافية... الخ التي ظهر فيها فإنه ارتقى لأن يكون تهديدا في نظر الآخر، وهنا بدأت مشكلة الخوف منه والرغبة من أيديولوجيته، ولكن ما هو ملاحظ أن زيادة نسبة الخوف وتبني صورة سلبية عنه في المرحلة المعاصرة أخذ في التزايد والاطراد بعد هجمات 11/09/2001 أين أصبح هناك اقتران سببي في الوعي الغربي بين العمليات الإرهابية من جهة، والإسلام من جهة أخرى، وبات الإرهاب في تعريفه يعني الإسلام والمسلمين ووصل الحد إلى مستويات أن أي هجوم عنيف يحدث في أي مكان من العالم أول من توجه إليه التهمة هو الإسلام، وراحت هنا الولايات المتحدة الأمريكية ومن على شاكلتها من الأوروبيين يقومون بصياغة تشريعات وقوانين من شأنها كما يزعمون حماية مواطنيهم وذلك بالقيام بعمليات وحروب استباقية تقضي على كل تهديد، تماما كما حدث في أفغانستان والعراق، ويؤكد هذا الطرح باسكال بونيفاس (P. Boniface) أحد أكثر المنتقدين لأطروحة صراع الحضارات بقوله: "أن أحداث 11 سبتمبر وتهديد الإرهاب الإسلامي مهدا لفكرة قيام حرب ما بين الحضارات، بين العالم الغربي والعالم الإسلامي"²⁴.

إن سلسلة الهجمات التي وقعت في التاريخ السابق وما لحقها من هجمات أخرى في أوروبا (مدريد باريس، لندن) جعلت الغربيين نخبا وعامة يقتنعون بأن الإسلام يجب وسمه بالإرهاب، ذلك أن هذه الأعمال كما سوقها الإعلام الغربي تطرح الإسلام والمسلمين، وليس من زاوية أعمال قامت بها جماعات متشددة لها أيديولوجيتها الخاصة والتي لا يمكن أن تعبر عن 1.5 مليار مسلم، من هنا أصبح الإسلام يوصف بأنه عدو لقيم الحضارة الغربية، يزرع الخوف والرعب ويرفض الآخر، حتى وصل الأمر إلى إعلان حرب مقدسة جديدة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضد الإسلام والمسلمين وهذا على لسان الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش²⁵.

وفي ظل ارتدادات تلك الهجمات بدا واضحا ذلك الشرخ الكبير بين الوعي الغربي وما يحمله من صورة ذهنية عن الإسلام والمسلمين من جهة، وحققتيهما من جهة أخرى، فلا المنفقون أو السياسيون ولا الإعلاميون كانوا قادرين على الفصل ما بين العنف والإرهاب والإسلام، وإن كان هذا يرجع لأمر ما إنما يرجع إلى سطحية الدراسات التي تقام على الإسلام أو عنصريتها وانتقائيتها المفرطة ومنهجيتها غير السليمة، والتي استمدت شهادتها من الدراسات الاستشراقية التي قدمت ذلك الدين على أنه عدو الحضارة الغربية بطريقة أو بأخرى، وعليه فالتعميمات التي يقوم بها الغربيون على الإسلام ليست صحيحة وتفنقر للمصادقية حتى وإن كان العنف الذي يمارس في الغرب تتبناه أطراف تعلن على أنها تنتمي إلى الإسلام وتدافع عنه، ثم إن من يتابع موقف الغربيين وإعلامهم في نقلهم لأشكال المقاومة المشروعة كما هو الحال في فلسطين والعراق وأفغانستان ومختلف البلدان الإسلامية التي تتعرض للاحتلال تفسر على أنها

شكل من أشكال العنف فمن يتابع قناة (BBC) يكتشف أنها تستعمل تعبير عملية انتحارية في الأراضي الفلسطينية بدل عملية استشهادية.

هكذا إذا سعت أجهزة الإعلام الغربي إلى تسويق صورة ذهنية محددة عن الإسلام في أعقاب هجمات 2001/09/11 واعتبرت أن الإسلام هو رديف العنف والإرهاب، ولعل الحديث عن مظاهر ذلك يؤكد هذه الفكرة، فالإعلام الهولندي بعد تلك الهجمات فقد كل الحيادية والموضوعية التي كان يتمتع بها اتجاه قضايا المسلمين، فخلال 10 أيام الأولى بعد الحادث بقيت جميع وسائل الإعلام الهولندية تتخذ موقفا عدائيا صريحا ضد الإسلام، واحتلت التقارير والبرامج والأفلام الوثائقية التي تتناول الإسلام والحركات الإسلامية معظم أوقات المحطات التلفزيونية وبذلت جهدا من أجل ترسيخ صورة الإرهاب وإحاقه بالمسلمين، وأن ذلك جزء من تعاليم الإسلام، من خلال الربط بين تربية المسلم ومفاهيم الموت والحياة والدفاع عن النفس (الاستشهاد) وفكرة الجهاد، كلها أفكار تمثل عقيدة الإرهاب والعنف والتسامح²⁶.

مما سبق نكتشف أن هجمات 2001/09/11 كانت المغذي الرئيسي لخطاب الإسلاموفوبيا في الإعلام الغربي في المرحلة المعاصرة، والذي أصبح منذ ذلك الحين يعمل على تعميق كراهية الإسلام والمسلمين، ويشيطن كل أفكارهم وسلوكاتهم، في ربط تعسفي غير دقيق بين تصرفات بعض الجماعات الإسلامية المتشددة وبين العنف والإرهاب الذي أصبح يقترن في الوعي الغربي بالإسلام والمسلمين.

6.4 - اللوبي الصهيوني الضاغط:

من بين الأسباب التي تغذي الشعور بكرهية الإسلام والمسلمين هو التحكم المباشر في وسائل الإعلام الغربية والتي تخضع لخط تحريري ينفذ أجندة معادية للمسلمين، وهذا يرتبط بشكل مباشر بملكية تلك الوسائل الإعلامية خاصة كبريات محطات التلفزة أو أشهر الصحف العالمية، إذ أنها مملوكة في أكثرها إلى شخصيات تتبنى الفكر الذي لا يتخلف عن شيطنة المسلمين. في هذا الإطار نشير إلى تحكم الصهاينة أو المتعاطفين معهم والمدافعين عن إسرائيل في معظم تلك الوسائل فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر شخصية روبرت مورdoch (R. Murdoch) إمبراطور الإعلام والذي يملك مجموعة إعلامية أمريكية وعالمية وهو لا يخفي دعمه لإسرائيل وعداءه للعرب والمسلمين، كما يدعم تيار المحافظين الجدد في أمريكا في حربها ضد العراق، حيث يمتلك العديد من الصحف (وول ستريت جورنال، ذي صن، ذي التايمز) والمحطات التلفزيونية على غرار Fox, Sky. وفي ذات السياق وبطرح آخر يمكن أن نضيف أن وسائل الإعلام الغربية أصبحت تسمح بفضاء أوسع لخطاب الكراهية والعداء للمسلمين لأن ذلك في الواقع يمثل مادة إعلامية قادرة على جذب قطاعات واسعة من المجتمع الغربي، وهذا حتى تحقق أكبر قدر من المشاهدة وفي النهاية أكبر قدر من المداخل ما يعني تدخل الاعتبار المادي في ذلك، ربما من المفيد أن نذكر هنا أن المجلة الفرنسية الساخرة شارلي إيبدو (Charlie Hebdo) وقبل نشر الرسومات

المسيئة للنبي (ص) كانت على وشك الإفلاس ولكن وبعد حادث الاعتداء عليها تمكنت من طبع 03 ملايين نسخة ما يعني عمليا إنقاذها من شبح الافلاس والإسلام والمسلمون هما كبش الفداء في ذلك. نخلص في نهاية العرض المتعلق بأسباب صناعة الإعلام الغربي للإسلاموفوبيا أنها أسباب أعقد وأكثر مما نتصور -كما سبق أن قلنا- يتداخل فيها السياسي مع الديني مع المادي والإيديولوجي وهي أسباب غدت -ولا زالت إلى غاية اللحظة تغذي- خطاب الكراهية والعداء والخوف من الإسلام، إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: إلى متى سيستمر هذا الوضع؟ وبمعنى آخر ما هي سبل مواجهة الإسلاموفوبيا في الإعلام الغربي؟

5 - سبل مواجهة الإسلاموفوبيا في الإعلام الغربي:

لقد سبق وأن رأينا في الصفحات السابقة أن مسألة الإسلاموفوبيا أصبحت مادة إعلامية غير ناضجة يتم استدعاؤها بين الحين والآخر ضمن أهداف وغايات معينة، وقد ساعد ذلك سلسلة الأسباب التي حاولنا جاهدين أن نحصر أكثرها تأثيرا وحدة، ولكن حتى وإن كانت هذه الظاهرة -أي الإسلاموفوبيا- تاريخية قديمة، فإن زيادة حدتها وتوترها كان بعد هجمات 2001/09/11 حيث أصبح الترويج على أن الإسلام هو العدو القديم الجديد للغرب، وهذا بدلا من الشيوعية ونهاية الخطر الأحمر وبروز الخطر الأخضر، وفي ضوء هذا انتهى واقع الرجل الغربي ووعيه وصورته الذهنية إلى نمط من المخيال الذي يعادي ويناوئ العرب والمسلمين والإسلام، سواء عن جهل أو بخطاب محرض لدى شق واسع من وسائل الإعلام، من هنا تصبح الآلة الإعلامية هي الوسيلة المباشرة والأكثر تأثيرا في الحملة ضد كراهية الإسلام وصناعة الخوف منه، خاصة في ضوء تقدم وسائل التكنولوجيا التي سهلت مهمة وصولها- أي الإسلاموفوبيا- وبطبيعة الحال أفكارها وإيديولوجيتها إلى أبسط الناس، الأمر الذي يعني زيادة حدة الخوف من الإسلام. وأمام هذا الواقع الذي لا ينفك في زيادة توتره وتحول الإسلام إلى رديف للعنف والإرهاب والرجعية والتخلف والظلمية كان من اللازم البحث عن حلول لهذه المشكلة من خلال السعي بجدية وبعث نحو مواجهة هذا الأمر، من خلال إرادة ومسعى تصحيح صورة الإسلام إعلاميا غير أن هذا يتم في تقديرنا وفق مستويين إثنين، أولهما يرتبط بالإعلام والإعلام الغربي، وثانيهما بما يجب أن ينقله هذا الإعلام من مختلف المظاهر الذي تعادي الإسلاموفوبيا وتكشف حقيقتها الزائفة.

1.5- المستوى الإعلامي :

يتضمن هذا الأمر إعادة مراجعة السياسات الإعلامية المتبعة على مستوى الإعلام الغربي والعربي على حد سواء فعلى مستوى الإعلام الغربي يجب أن يتجاوز عقدة الصورة الذهنية-النمطية التي دأب على تقديمها للغربيين ويمارس قطيعة إبستمولوجية (Rupture Epistémologique) مع ممارسته السابقة وأن يتناول وينقل الصورة الحقيقية عن الإسلام والمسلمين، ويبدأ ذلك عمليا من خلال التخلص من كل أشكال الكراهية والتخويف التي عمل على تسويقها ومحاولة ترسخها لدى أكبر عدد من الغربيين ولعل الخطوة الأولى في ذلك تبدأ في النقل من الترويج للأفكار النمطية من خلال عدم إفراح

المجال أو استضافة منتقدي الإسلام والمعادين له بشكل غير عادي، وكذا الذين يتبنون أطروحات سخيفة وغير مؤسسة عن تهديد الإسلام والمسلمين لقيم الحداثة الغربية من حرية وديموقراطية وغير ذلك، لأنه قد تجاوز كما شرحنا سابقا كل الأطر الأخلاقية والموضوعية والعلمية من خلال فتح المجال بشكل واسع لهؤلاء الحاقدين دون دراية واسعة وعميقة بالإسلام والمسلمين²⁷ وضمن هذه الخطوة وحتى وإن افترضنا أن الإعلام الغربي يرى في عملية انتقاد الإسلام والمسلمين عبارة عن تغطية إعلامية مهنية، فإن السؤال المطروح هو لماذا لا يتم تناول حقيقة هذا الأخير بالطريقة نفسها، وبمعنى آخر يجب على الإعلام الغربي بكل صوره وأشكاله أن يمنح القدر الكافي للمفكرين والسياسيين وغيرهم ممن يتبنون خطابا مضادا للإسلاموفوبيا، هذا حتى وإن كان موجودا عمليا على مستوى بعض وسائل الإعلام الغربية إلا أنه بصورة محتشمة، أي قليل مقارنة مع الخطاب المعادي للإسلام فالأصوات الناشئة إعلاميا والتي تقدم صورة معقولة عن الإسلام لا تسمع ويتم إقصاؤها في الوقت الذي يتم فقط الترحيب "بخبراء الإسلام" (Experts de l'Islam) الذي يصيرون صباح مساء بأن الإسلام هو عدو الغرب بعد سقوط المعسكر الشرقي²⁸.

هكذا إذا يفترض بالإعلام الغربي أن يكون حياديا أو موضوعيا في نقله لصورة الإسلام والمسلمين ويجب عليه ألا يتحول إلى منصة أو آلة ترسم مخيالا ووعيا اجتماعيا يرفض ويكره كل ما يرتبط بالإسلام، وأن يتعامل بنفس المعايير والخلفيات التي يطبقها وينطلق منها في تناول أي قضية أخرى وبالتحديد مسألة معادة السامية (Anti-Semitism) أو القضية التاريخية حول محرقة اليهود في الحرب العالمية الثانية الهولوكوست (Holocauste). هذا الإعلام الذي يتجنب الخوض فيها، بل إنه يدافع عنها وينتصر لها، ونحن نقول في هذا الإطار إنه إذا كانت القضايا السالفة الذكر يتم تناولهما تناولا منحاذا وغير موضوعي في وسائل الإعلام الغربية فنحن فقط نبحت عن موضوعية في تقديم الإسلام والمسلمين للفرد والمجتمع الغربي ويتم تجاوز ذلك الربط التعسفي والقاسي والتاريخي ما بين هذين الأخيرين من جهة العنف والإرهاب والتهديد من جهة أخرى، هذه المسائل في التناولات الإعلامية الغربية تعتبر من الطابوهات (Tabous) التي لا يجب الخوض فيها، وسواء اتفقنا أو اختلفنا معها فمن اللازم أن يقف الإعلام الغربي على بعد مسافة واحدة من كل القضايا.

لقد أصبح واضحا ومنذ فترة ليست بالقصيرة أن الإسلاموفوبيا اخترقت حتى أسوار السينما وعالم الفن، وباتا شكلا من أشكال الخطاب الإعلامي الذي يحرض على الكراهية من خلال إنتاج أعمال فنية (أفلام) سينمائية عالمية تسوق ذلك وخاصة في هوليوود، لذلك فإن مواجهة الإسلاموفوبيا سيكون من المناسب جدا أن يتم نقدها ورفع كل التضييل عن الإسلام والمسلمين من خلال أفلام تسوق للشكل والمضمون الحقيقي لهذين الأخيرين، عن طريق قمة عاجلة بين منتجي الأفلام من العالم العربي - الإسلامي ومن الولايات المتحدة الأمريكية للجلوس معا ومناقشة مشكلة الإسلاموفوبيا واستعراض الأفلام حتى يمكن مراقبة البعض للبعض الآخر، ثم إنه من الضروري أن يكون هناك تواجد عربي - إسلامي في هوليوود وهذا حتى يتم تقديم الانطباع الحقيقي عن الإسلام، تماما كما تجسد في فيلم "ملكة الجنة"

وذلك المشهد الذي يصور الممثل الذي أدى دور صلاح الدين الأيوبي -وهو عربي- والذي اقترح مشهدا في ذلك الفيلم يتضمن حمل الصليب الملقى على الأرض، وإعادته إلى مكانه على المنصة وهذا المشهد يعبر على أن الممثل كان يعرف أن صلاح الدين ذاته كان سيقوم بذلك لو رأى الصليب على الأرض، وليس هذا إلا تعبيرا حقيقيا عن موقف الإسلام من الآخر في صورة عمل فني، من هنا ليس المطلوب إلا القيام بأفلام متوازنة -واقعية تعرض صورة المسلمين، ولا نريده أن يكون أفضل أو أسوأ من أناس آخرين، ولكن للأسف هذا الطلب ولدى بعض الناس يبدو شيئا كثير خاصة هؤلاء الذين يمتلكون أجنادات خاصة²⁹.

إن تصحيح الإعلام الغربي للصورة الذهنية التي علقت بوعي الغربيين وارتقت لأن تصبح رؤية ونظرة نمطية تضيي السلبية على الإسلام وترتبط خطيا اللاتسامح والعنف وإنكار الآخر بالمسلمين هو تصحيح لا بد منه وبصورة مستعجلة، ولكن في الوقت نفسه لا بد أن يقترن بإجراءات عملية يتخذها إعلام من يتعرضون للكرهية والعنصرية، وبمعنى آخر فإن الإعلام الإسلامي مدعو إلى مواجهة العداء للإسلام والمسلمين، والقضاء تدريجيا على النزعة الغربية -التضليلية- التي أنتجت الإسلاموفوبيا وتعمل على تعميقها وتراكميتها، ولعل البداية تكون من خلال إنشاء قنوات فضائية متخصصة باللغات الأجنبية تعمل على عرض قضايا العالم الإسلامي وشرح الإسلام (عقيدة، فكر، سلوك) وتعريف المجتمعات الغربية بالثقافة والحضارة الإسلاميتين من خلال استغلال كل أشكال وسائل الإعلام المسموعة، المرئية، المكتوبة مع ضرورة أن تكون من تمويل عربي وإسلامي³⁰.

هناك إذا ما يتوجب على الإعلام العربي في الدول الإسلامية أن يقوم به وهذا لمواجهة خطر تزايد الإسلاموفوبيا، فدون هذا الأمر ستتسخ كل الصورة الذهنية السلبية عن الإسلام وتستمر في ذلك وتزداد نمطية أكثر فأكثر، لذا فمواجهة الإعلام الغربي المضلل بإعلام إسلامي هادف يبين حقيقة الإسلام للغربيين من شأنه أن يكسر كل نمطية عنه ويشق الطريق نحو تقديم صورة حقيقية ونهائية، ومن هنا يتأكد لدينا أن الحضور الإعلامي العربي -الإسلامي في المجتمعات الغربية أصبح اليوم ضرورة ملحة أكثر من أي وقت مضى.

2.5- المستوى غير الإعلامي:

تبعاً لسلسلة الإجراءات الفاعلة التي من شأنها أن تزعزع التصورات النمطية عن الإسلام وتغيير الكثير من الصور الذهنية التي لحقت به على مستوى الإعلام، لا يمكن أن نتجاوز أو نغض الطرف عن حلول عملية تحارب ظاهرة الإسلاموفوبيا في حد ذاتها، ومن الأكد أن الإعلام سيتولى مهمة نقلها وتقديمها للآخر فهو الأداة كما يعرف الجميع بل والسلطة المعرفية التي تصنع الأفكار والوعي حول مختلف القضايا والمسائل وتوجهها في نفس الوقت، فلا شك أن إبراز صورة الإسلام وحقيقته وتصحيحها لدى الغرب أول ما يستدعي هو ضرورة مساءلة النفس ومراجعة الذات للنظر في مستوى مسؤوليتنا كمسلمين، فالأمة الإسلامية مطالبة اليوم أكثر من أي وقت مضى بممارسة ضرب من ضروب النقد الذاتي (Autocritique) لمواجهة التحديات والضغوط التي تتعرض لها والإسلاموفوبيا جزء منها-دون

انكفاء أو التواء أو تقهقر³¹، ولهذا يحصل أن النقد الذاتي يدفع نحو إلزامية التغيير نحو مستوى أفضل وأحسن، ولا نشك أبداً أن تغيير صورة الإسلام والمسلمين في الغرب على نحو إيجابي تكمن بدءاً في تصحيح صورة الأمة الإسلامية، وذلك بمعالجة أوضاعها وتحسين ظروفها وفق المنهج السليم والأسلوب القويم، فالمسألة تتعلق بتصحيح الصورة داخلياً أي في العالم الإسلامي، قبل أن يكون ذلك خارجياً أي في مرآة الغرب، لأن صورة الإسلام في الخارج قد تظل غير واضحة المعالم ولا مكتملة الملامح ما لم يقوم المسلمون بتصحيح صورتهم في الذات قبل أن تكون أمام الآخر³² وهنا يجب أن يواجه المسلمون أنفسهم ويراجعوا أفكارهم من خلال تقديم صورة إيجابية عن القدرة على التعايش في المجتمعات الإسلامية والغربية على حد سواء والافتتاح بفكرة قبول الفوارق من مثل تعايش المذاهب الدينية (السنة، الشيعة) وهذا من دون شك سيساعد على تحسين صورة الإسلام، فعندما يقرأ أو يسمع أو يرى الغربي النزاع والحروب الطائفية في العراق باكستان سوريا... إلخ ماذا سكون أثر ذلك على الصورة الذهنية في وعيه؟ وما قيل عن التعايش والتسامح بين مذاهب الإسلام يقال عن التعايش والتسامح ما بين الديانات وهذا حتى يتم قطع الطريق على كل الأفكار الناشئة والجامعة والراديكالية التي ترفض الآخر، فالخطاب القرآني كان واضحاً في مسألة الأديان، إذ ليس هناك إلزام عقائدي قسري في عالم الإسلام ف «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» لذا فالانفتاح والاعتراف بالديانات الأخرى واحترامها دون ازدراء وهذا ما تفعله القلة - هو طريق مهم جداً في تغيير صورة الإسلام لدى الغربيين.

هكذا إذا تصبح مسؤولية تصحيح صورة الإسلام ملقاة في بعض أجزائها على عاتق المسلمين ذاتهم، ذلك أن المتضرر الأكبر والخاسر الأخير في صناعة الإسلاموفوبيا وتغذية الكراهية هو الإسلام وكل من يعتنقه، لذا فتحسين صورة هذا الأخير هي مطلب ملح وضروري يفرض نفسه باستعجال ولعل بداية وعي المسلمين بما يجب عليهم أن يفعلوه وبشكل أفضل وخاصة الجالية العربية - الإسلامية في الغرب هو شكل من أشكال تصحيح تلك الصورة التي علقت بوعي الغربي وغير المسلم فمثلاً يجب تأييد المنظمات الموجودة في الغرب التي تروج لقضاياهم وتدعمها وتعمل على تحسينها. ثم إنه على المسلمين أن يكونوا أكثر تنظيماً وظهوراً في الغرب، وقد يكون من المناسب أن نذكر هنا أن اليهود - رغم قتلهم - استطاعوا أن يدافعوا عن قضاياهم ويربحوا الرهان في عنصريتهم لأنهم أكثر تنظيماً وتخطيطاً للانتصار لأفكارهم، إذ لا يخفى أن من يتحكم في السياسات الغربية وخاصة الأمريكية اليوم في السر والعلن هو اللوبي الصهيوني، من أجل ذلك يجب أن يضطلع المسلمون بالدفاع عن قضيتهم وينتصروا لتقاftهم ودينهم من خلال توفير الموارد المالية الكافية لذلك وهو ما سيعزز من مستويات محاربة الكراهية والرهاب الإسلامي، هنا يذهب البروفيسور جون اسبوزيتو (John Esposito) أستاذ الأديان والعلاقات الدولية والدراسات الإسلامية في جامعة جورج تاون ورئيس مركز التفاهم الإسلامي المسيحي في واشنطن إلى ضرورة استقطاب الموارد المالية العربية الإسلامية من أجل جلب المثقفين المسلمين في مركزه وبقية المراكز الأخرى وهذا لمعالجة الكثير من القضايا، ويتم التواصل مع المسؤولين الكبار، ويكون في حوزتنا

وثائق عن المفاهيم المغلوطة، ويتم النشر في وسائل الإعلام وبصفة عامة يجب أن يتم تأييد معرفة قضايا العالم العربي والإسلامي والمواضيع التي تحسن العلاقات بين الإسلام والغرب³³.

وفي ظل محاولة تحسين العلاقات بين هذين الأخيرين يتفق العديد من الباحثين والدارسين على أن الآلية التي ستعمق تلك العلاقات ستكون بتجاوز مختلف أفكار التطرف والعنصرية من الجانبين وبمعنى آخر إذا كان هناك في الغرب من يعمل على زراعة الخوف من الإسلام من سياسيين ومفكرين ومثنيين ويجعلون منه وحشا يقيم بينهم يجب القضاء عليه فإنه في الشرق تدفع تلك الحركات الأصولية المتشددة بالعنف كسبيل للتعبير عن مواقفها والذي يرفض تقبل الآخر وهذا فضلا عن ممارسة بعض المسلمين في ذاتهم أو فيما بينهم، هذه الجدلية تم تصويرها في أدبيات ومفكرين كثر على أساس أن الصراع في الحضارة المعاصرة هو صراع بين قيم الحضارة الغربية من جهة والإسلام وثقافته من جهة أخرى ولكن هذا في اعتقادنا لن يحل المشكلة بقدر ما سيفاقمها، لذا أنتج كل الحريصين على الغرب والإسلام مفاهيم جديدة تصب في إطار ما يعرف بحوار الحضارات والأمم بدل الصراع، و حتى وإن تم الاعتراف أن طريق هذا الحوار صعب ومليء بالعراقيل سواء منها النفسية أو الإيديولوجية أو التاريخية والبراغماتية ولعل ما يفترض وجود هذا الحوار هو الانطلاق من ذلك الاحتكاك التاريخي الذي جمع الشرق بالغرب في صورته السلبية (الاستعمار والحروب الصليبية) أو فترات انتقال الحضارات بين الشرق والغرب هذا الحوار الذي يتأسس ويبدأ انطلاقا من صياغة خطاب واحد يفهم به كل واحد الآخر حتى يحصل الاعتراف المتبادل والتعارف الجيد، الأمر الذي سيسمح بتمهيد الأرضية وخلق مناخ ملائم للتفاهم والتعاون الذي سيساعد الجميع على توليد توجهات أكثر إيجابية، ويضعف من روح النزاع والإقصاء والكره، أي محاولة تحقيق فهم أعمق للذات والآخر⁽³⁴⁾ بصورة جدلية من الذات إلى الآخر ومن الذات إلى الذات، فمعرفة الذات لذاتها سواء كانت غربية أو شرقية تجعلها تتأمل في وعيها وقيمتها الراهنة وتمارس نوعا من النقد الذاتي الذي يمهد نحو عملية تصحيح ومراجعة لكل أشكال الأحكام المسبقة (Préjugés) والمواقف السلبية التي تتخذ اتجاه الآخر.

إن حوار الحضارات ما بين الغرب والإسلام ليس في الواقع إلا تصورا طوباويا يأمل الكثيرون في إنجازه، ذلك أن العالم الذي نعيش فيه عالم واحد موحد، وتغذية الكره من كل جانب لن يفيد في شيء بل إنه سيزيد من مسألة العداة والإيمان بحتمية الصراع التاريخي والأبدي الذي نافح عنه البعض في الغرب والشرق، وينفي التسامح الذي من الضروري أن يكون الوسيلة والغاية التي يجب على الطرفين أن يؤمنا بها من أجل تأسيس علاقة جديدة تتجاوز كل عقد الماضي والتاريخ وتتطلق في صياغة أفكار ومواقف ومفاهيم ترفع كل أشكال التمييز والعنصرية وتجعل من النزعة الإنسانية (Humanisme) نقطة المحور في كل تواصل بين الذات والآخر، فالإنسان بغض النظر عن انتمائه وقيمه ودينه وجنسه... إلخ يبقى انسانا يجب أن يعامل كغاية في ذاته، ولا يجب أن ينظر أحد للآخر بمنظار التراتبية أو النزعة المتفوقة التي تصنف البشر ضمن مستويات يتفوق أحدها عن الآخر.

خاتمة (نتائج البحث):

لقد انطلقنا في هذا المقال من إشكالية محددة تمحورت حول الإعلام الغربي-خاصة بعد هجمات 2001/11/09-وصناعته للإسلاموفوبيا، ومن خلال استقراء انبثاق وتشكّل هذه الأخيرة، وكذا تحديد أكثر الأسباب التي تدفع باتجاه صناعة الخوف من الإسلام من طرف الإعلام الغربي، وصولاً إلى محاولة حللت هذه المشكلة الخطيرة نكون قد توصلنا إلى النتائج الآتية:

1- الإسلاموفوبيا مصطلح حديث النشأة، يعكس الخوف من الإسلام وكراهية المسلمين، وهي موقف إيديولوجي يتبناه الآخر، غير أن هذا الموقف متجذر في حقيقة الأمر في التاريخ، حتى وإن لم تتم ترجمته في مصطلح واضح وصريح يعبر عنه، فانبثاق الإسلام وتشكّل ثقافته وكذا توسع رقعته الجغرافية أصبح في نظر الآخر خطراً داهماً، ولا أدل على ذلك من الصراع بينه وبين المسيحية في القرون الوسطى.

2- لا ننكر أن كراهية الإسلام والمسلمين عبارة عن موقف تبناه الكثير من رجال الفكر والدين في الغرب ودافعوا عن ذلك تحت مبررات ودواع كثيرة، ولكن المؤلم أن تقاوم هذه الظاهرة وتزايد أعداد من يتبنى هذا الموقف يعود إلى أجهزة الإعلام والصحافة، بعدما أصبحت سلطة فعلية تصنع الوعي الفردي والجمعي وتوجه الرأي العام.

3- إن الإعلام الغربي وتغذيته لكراهية الإسلام والمسلمين تقف خلفها العديد من الأسباب الفاعلة، في مقدمتها الاستثمار السياسي لأحزاب اليمين المتطرف في الغرب، ضف إلى ذلك أن الخوف من الإسلام يرتبط بالتاريخ ويتجسد ذلك عملياً في منطق صراع الحضارات سواء بينه وبين المسيحية أو بينه وبين فكرة الصهيونية، ذلك أن من يبرر هذا المنطق ينطلق من اختلاف شكل الثقافة الإسلامية عن الأشكال الأخرى، وفضلاً عن هذا فإن تزايد العداء للإسلام كان في أحد فصوله يعزى إلى التأويل والفهم غير الدقيق للإسلام في ذاته، الأمر الذي أنتج حركات وإيديولوجيات داخل عالم الإسلام تبرر منطق العنف، وهذا ما أصبح كحجة في وقت لاحق لدى الغربيين لنشر الفوبيا منه.

آخر القول نؤكد على أن أهم التوصيات أو المقترحات التي يجب التعمق فيها لمعالجة الإشكالية التي طرحناها في هذا البحث يمكن أن نجملها في النقطة الآتية:

تكثيف الجهود الإعلامية وغير الإعلامية داخل المجتمعات الغربية والإسلامية على حد سواء بهدف مواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا، فالغربيون عليهم أن يراجعوا موقفهم من الإسلام من خلال قراءة واعية-موضوعية وعميقة له ولثقافته بعيداً عن الإيديولوجيات والميولات والحسابات السياسية، وهذا بطبيعة الحال لن يكون إلا عن طريق المراكز البحثية والخبراء المختصين في هذا المجال تماماً كما فعل المستشرقين الموضوعيين هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن إرادة تقويض ظاهرة العداء للمسلمين يجب أن يضطلع بها المسلمون أنفسهم من خلال تصحيح صورة الإسلام والمسلمين من الداخل بالتحديد محاربة التطرف والتعصب الدينيين اللذين أصبحا الغرب يستثمر فيهما بناء على تعميمات خاطئة، كما يجب أن يعمل المسلمون على محاربة الإسلاموفوبيا انطلاقاً من تسخير الدعاية الإعلامية والنشاط الواقعي للمسلمين في الغرب بما يقدم انطباع عن حقيقة الإسلام وثقافته.

الهوامش:

- 1-حسن عزوزي، "دور الصحافة في تصحيح صورة الإسلام في الغرب ومعالجة ظاهرة الإسلاموفوبيا"، ضمن أعمال ندوة "دور الإعلام في معالجة ظاهرة الخوف من الإسلام"، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، سوريا، نوفمبر 2006، ص ص 43-44.
- 2-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 3-مفهوم الإسلاموفوبيا، صحيفة الحدث الإلكترونية، <https://www.alhadth.ps/article> ، تاريخ التصفح: 2008 /01/25 الساعة: 12:00.
- 4-الإسلاموفوبيا.. معاناة المسلمين في ديمقراطيات الغرب، <https://www.aljazeera.net> ، تاريخ التصفح: 2018/01/25 الساعة: 11:00.
- 5- مالك بن نبي، وجهة العالم الاسلامي، ج1، دار الوعي، ط1، الجزائر، 2013، ص ص 111-112.
- 6- ندى زين منصور، الصورة الذهنية الإعلامية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2006، ص 100.
- 7- المحجوب بن سعيد، الإسلام والإعلاموفوبيا، دار الفكر، دمشق، 2010، ص 09.
- 8- في هذا الإطار ألف الأمريكي ناثان لين كتاب "صناعة الخوف من الإسلام"، بلوتو برس، لندن، المملكة المتحدة، 2012 وتعرض في فصوله إلى دور الإعلام وخاصة الأمريكي في إنتاج الإسلاموفوبيا.
- 9- عبد القادر طاش، صورة الاسلام في العلام الغربي ، دار السلام للإعلام العربي، ط2، القاهرة، 1993، ص 67.
- 10- وحيد عبد المجيد، الإرهاب وأمريكا والإسلام. من يطفئ النار؟ دار المحروسة، ط1، القاهرة، 2002، ص 163.
- 11- المرجع نفسه، ص 167.
- 12- مشري مرسي، جدلية العلاقة بين الإسلاموفوبيا وحوار الحضارات، 2010، ص 07.
- 13- محمد عمارة، الإسلام في عيون غربية افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء، دار الشروق، ط1، مصر، 2005، ص ص 49-52.
- 14- المحجوب بن سعيد، المرجع السابق، ص ص 91-92.
- 15- حافظ كاي، كيف تساهم وسائل الإعلام في انتشار كره الإسلام في المجتمع الغربي؟ صحيفة تسايت أونلاين www.zeit.de
- 16- المرجع نفسه.
- 17- ستيفن شيهي، الإسلاموفوبيا.. الحملة الايديولوجية ضد المسلمين، ترجمة فاطمة نصر، مكتب سطور للنشر، ط1، 2012 ص 40.
- 18- حافظ كاي، المرجع السابق.
- 19- ستيفن شيهي، المرجع السابق ، ص66
- 20- Sueml Huntington, Le choc des Civilisations, tra: Odile Jacob, 2007, P 219 .

- 21- إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط2، بيروت، 1984، ص ص 39-38.
- 22- عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية (إشكالية التكوّن والتمركز حول الذات)، المركز الثقافي الغربي، ط 1، بيروت، 1997 ص 10.
- 23- مشري مرسي، المرجع السابق، 06.
- 24- Ouria Shéhérazade Kahil, Rapport sur l'islamophobie en France, 2008, collective, contre l'islamophobie, www.islamophobia.net.
- 25- حسن نيازي، المرجع السابق، ص ص 189-190.
- 26- صلاح عبد الرزاق، الأقليات المسلمة في الغرب: قضايا فقهية وهموم ثقافية، د د ن، 2005، ص ص 196-195.
- 27- حافظ كاي، المرجع السابق
- 28- Rabh Saddek, L'islam le discours médiatique, comment les medias se représentent l'islâm en France Al Bouraq, Paris, 1998
- 29- العرب السيئون ..كيف تشوه هوليوود، المرجع السابق.
- 30- المحجوب بن سعيد، المرجع السابق، ص 102.
- 31- الإيسيسكو، رؤية الإيسيسكو إلى المتغيرات الدولية، ص 04 .
- 32- حسن عزوزي، المرجع السابق، ص 43.
- 33- برنامج بلا حدود، موضوع الحلقة: الصورة المشوهة للعرب والمسلمين لدى الغربيين، متاح على الموقع الإلكتروني لقناة الجزيرة الفضائية: www.Aljazeera.net، تاريخ العرض: 20-07-2001، تاريخ الاسترجاع: 01-02-2018 على الساعة 14:40.
- 34- رضوان جودت زياد، صدى الحداثة، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء - بيروت، 2003، ص 132.